عبد الله عبد

العربة والرجل

حينما مات فهيم منذ شهرين لم يكن محمود قد هيأ نفسه ليحل مكانه . لقد استيقظت الاسرة ذات صباح فوجدت فهيما ممددا بلا حراك . « لم يشكُ مرضا يوما » ، قال محمود لنفسه وقد انحطّ بصره على البقعة التي كان يزحف عليها ظله المنكمش . كان محمود يقود عربته في مرتفع « الطابيات » ، وكانت مثقلة باثاث منزل .

لقد مات لمحمود اكثر من حمار . ولكن فهيما شيء آخر . كان يعرف ما ينبغي عليه ان يفعل في مختلف الظروف. ولم يكن اسم فهيم قد اطلق عليه عبثا. فهو يبطىء عندما يتعين عليه ان يبطىء، ويسرع حين تدعو الحاجة الى ذلك.حتى انه عاد الى البيت مرة وحيدا. وكان محمود يتفنن في مناداته . لقد اطلق عليه كلمة « فهيم » اول ما اطلق عندما لاحظ انه حمار غير عادي . ثم تعددت الاسماء بعد ذلك : كفاهم ، وفهمي، وفهمان. وكانت آخر اسمائه له « ابو الفهم » .

لقد طرق الباب عليه في الصباح سالم وقال له :

« اريد ان انقل اثاث البيت » .

فوافق محمود من حيث المبدأ .

« والى اين ؟ خيرا ان شاء الله » .

« الى داري في المشروع » .

« مبروك يا سالم » .

« اتفقنا ! اريد همتك وهمة فهيم . كيف حاله ؟ »

مرة اخرى فهيم . لماذا يذكّرونه به ؟

« بسلامة رأسك . لقد مات منذ شهرين » .

وفكر سالم ان يعيد النظر في عملية نقل الاثاث .

« ولكنه سيكون من الصعب عليك نقلها » .

فردّ الحمال :

نشرنا في العدد الماضي من « حوار » قصة « المربي الفاضل» لميشال نقولا ، التي فازت بالجائزة الاولى في مسابقة «حوار» للقصة القصيرة في البلدان العربية لسنة ١٩٦٥. وننشر في هـذا العدد القصتين اللتين فازتا بالجائزة الثانية (« العربة والرجل » لعبدالله عبد) والثالثة («حروش» لسنية صالح). وكانت قد اختارت القصص الفائزة لجنة تحكيم تتألف من الاستاذ توفيق يوسف عواد والدكتور عبد السلام العجيلي والاستاذ جبرا ابراهيم جبرا

« لا شيء يصعب على محمود » .

« العوض بحياتك . اتفقنا اذاً » .

« اتفقنا » . استرجعها محمود لنفسه بصوت مسموع مستأنسا. وتذكر كيف شدّ نفسه الى العربة عندما يمم صوب بيت سالم في الصباح ليبدأ نقـل اثاث المنزل ، كما تذكر ايضا نقلاته الستّ ، ثم طمأن نفسه : « هذه آخر دفعة على كل حال . وبعدها ؟ وبعدها ماذا ؟ انك ستمضي الى البيت دون شك . يكفيك ما قمت به اليوم . انت متعب » .

هو متعب ! هذا لا ريب فيه . ولكن التعب شيء ينبغي ان لا يفكر فيه الآن . انه لا يزال في بداية مرتفع الطابيات . فليتشاغل اذاً بأي شيء آخر .

وظل لحظة بلا تفكير محدد . كان ذهنه فارغا تقريبا . لكنه لم يكـن املس . كان في تلـك اللحظة اشبه برجـل يقف على مفترق طرق ذات مساء صائف في مدينـة ليس فيها سلوى .

وتابع قدميه وهما قدوسان رسمه وقد اخذ ينزلق منسحبا الى الوراء . فانزلق فكره بعينيه من بين ساقيه بلا ارادة منه الى الوراء ايضا حتى طرف الشارع عبر اسفل العربة . ولاحظ رجلا يجتاز الطريق الى الرصيف الثاني ، وامرأة مائلة تحمل دلوا خمن انه ملآن . وامسك بطرف الشارع فتساءل : « كم بقي عليّ من الطريق ؟ » كان لا يجرؤ على رفع بصره لاستطلاع دربه. ان شيئا ما قد بدأ يخزّه في ظهره. وامامه عشرات الشواهد، عليه ان يجتازها قبل ان يصل الى غايته . وطار بخياله الى الدار الجديدة .

هو ايضا كانت له احلامه . لقد فكر اكثر من مرة ان يدخر بعض المال . فجمع مائة وسبعا وتسعين ليرة . ولكن شيئا ما كان يحول دوما دون ازدياد هذا المبلغ . لقد رفض هذا الرقم بعناد ان يتحرك الى الامام ، حتى جاء يوم استنفدت معظمه عملية اجهـاض ، ولم تُبقِ الا على خمسين منه ، بالرغم من شفاعة شهادة فقر الحال . ثم قضى موت الحمار

الاول مع كدّ ثلاثة اشهر على ما فضل منه .

لقد خطر له في ذلك الحين ان يفتح حانوتا . مجرد مبلغ صغير للايجار ، ومثله للعمل . وبعد ذلك : « من دهنه اقليه » .

ولكن ماذا كان يمكن ان يعمل به ؟ هذا امر لم يقف عنده طويلا . ولقد فكر بحانوت للخضار . وكان التفكير بمثل هذا العمل له مبرراته بالنسبة اليه . انه كثيرا ما يعاني من نفقات الخضار التي يحملها الى البيت . ولقد قال في ذات نفسه مرة : « انني ابيع الطازج منها ، واحمل البائت الى البيت » . ولا غرابة في ذلك . كان محمود في الواقع ابا لسبعة اولاد . اربع اناث وثلاثة ذكور . كما بحث يوما امكانية افتتاح محل للبقالة . ولكنه سرعان ما استبعدها ، اذ تتطلب معرفة بمسك دفاتر للزبن . وهذا ما لا قبل له به .

لم يرَ على كل حال اي من هذه المشاريع وجه الشمس . لقد ظلت في اضبارة المحفوظات . ولكن ما باله الآن يعيد النظر في الماضي وينفض الغبار عن تلك المشاريع ؟

اليوم سيكون في حوزته مائتا ليرة . بما فيها الخمس عشرة ورقة اجرة نقل اثاث المنزل .

لقد قرر محمود عندما مات حماره الاخير ان يدخر مبلغا جديدا من المال — كعادته — كي يشتري به حمارا . غير ان بوادر مشكلة لاحت في افق الاسرة بالامس بسبب المبلغ ، لم تلبث ان انفجرت هذا الصباح عندما زفّ للعائلة نبأ صفقة نقل الاثاث .

كانت اكبر البنات من صف الاب . فقد كانت على ابواب خطوبة . لقد فكرت ان امتلاك ابيها للحمار سيدعم مركزها في ذلك المجال . حتى انها تخيلت ان حمارا مشدودا الى عربة جديد بان يوقع اثرا اطيب في نفوس الخاطبين . اما الابن فقد اراد الحصول على المبلغ لتنفيذ مشروع رآه الاب هوائيا . في حين كانت الام تريد اقتطاع جزء منه لشراء ستائر .

«مجنونة» ، قال محمود وقد ازداد انحناؤه الى الامام ، بفعل تصاعد الطريق ، مما اضطره ان يبذل جهدا اكبر كي يحافظ على سرعته . « من يشتري ستائر لبيت بالايجار مخلخل النوافذ ؟ وهناك الف شيء الزم منه . وأي شيء الزم من حمار اشدّه الى هذه العربة ؟ الى هذا الحبل الذي وقر كتفي وادماها . آه لو كان فهيم معي اليوم » .

واشتدت حاجته الى حماره الراحل . كان فهيم اكثر من حمار يساعد محمودا في العمل . كان رفيقا ، وكم باح له بمتاعبه العائلية . كان واحدهما يفهم الآخر . صحيح ان محمودا قد اقتنى كثيرا من الحمير ، ولكن فهيما انفرد بميزات لم تتوفر في الآخرين . وكان هذا الاحساس بالحاجة يتفاقم كلما تصاعدت الطريق .

كان الوخز قد اخذ ينتقل من اسفل الظهر زاحفا الى المناطق العليا منه بعد ان ترجم الى الم . لقد شعر به في الوسط اول ما شعر . وبالتحديد ربما البكرة السابعة من العمود الفقري .

كان ذلك في الصباح بعد ان انجز قسما من العمل. لم يخطر له وقتئذ ان يستأجر عاملا لحسابه. كان محمود خلال حياته العملية كلها يشتغل منفردا . حتى اذا صادفه صندوق ثقيل مثلا رفعه بين يديه واسنده الى مكان اعلى ثم نزل تحته وعتله على ظهره .

وازداد احساسه بالالم بعد ان وصل الى كتفيه . « ما قيمة حمار الآن؟ انه يعادل وزنه ذهبا » . لقد تساءل عن ذلك في نفس الوقت الذي ادرك فيه ان عليه ان يدبر نفسه. لقد تلفت يمنة ويسرة . كان الوقت الثانية عشرة ظهرا . وكانت الطريق خالية . اما الشمس فعمودية فوقه. وفكر على نحو لا يتطرق الشك اليه ان الشمس قد وقفت بدورها في الصف المعاكس له، وانها قد اختصته من بين البشر جميعا بكل ذلك الغضب الذي تنفثه في حزيران، في الثانية عشرة من منتصف النهار . لعله بدأ يتذمر .

كلا ! ولكن ما الذي سقط من الحمل في المؤخرة فتحطم ؟ والقى نظرة من بين ساقيه عبر اسفل العربة . فلفت انتباهه بادىء ذي بدء انحدار الطريق الحاد حتى طرفها الاول في القاعدة . وسرعان ما ادرك استحالة التوقف، رغم ان هذه الفكرة كانت لا تزال احساسا بعيدا غامضا .

ثم انسحب نظره على نحو عكسي مستطلعا ، فتمهل عند الاداة المحطمة هنيهة، وتابع بعد ذلك انسحابه حتى استقر في ذات نفسه . فقال : « ترى كم ثمنها ؟ انها من البلور الجيد » . وظلل جبينه نوع من الكدر : « ليحسم قيمتها اذا شاء ، فقد وقع ما وقع » . واستغرب سقوطها ، مسترجعا في ذهنه خلال ثانية من الزمن الحالة التي تركها عليها. وندم لانه لم يصطحب اصغر اولاده في هذه العملية : لو كان معه فلعله من الممكن ان ينبهه في في اللحظة المناسبة . كذلك فكر . اما من ناحيته فلم يألُ جهدا في الحرص على الآنية . لقد دارى امرها فوضعها في صفيحة بعد ان لفها بخرق قديمة منعا للاحتكاك . وفكر بعجب : « اننا نحسب لكل امر حسابه ، ولكن شيئا اقوى منا لا يني يمد لنا لسانه بين حين وآخر . اننا لا نستطيع ان نقف في وجه المكتوب » . وقال ايضا وهو يزرر عينيه ليمنع عنهما ملوحة العرق : « ربما لو كان الحبل اطول ... من يدري ؟ » وفكر ان اتفه الاشياء قد تسبب للمرء احيانا اذى بالغا . فقرر ان يكون احسن استعدادا في المستقبل .

انه لحسن بلا ريب ان تفكر على نحو افضل في المستقبل . ولكن ماذا بشأن الآن ، وانت على هذه الحال ؟ هوذا شيء آخر يسقط . انه المنبه هذه المرة .

وخيل له لفترة ان الزمن قد توقف ، وان العالم قد خلا الا منه ، مشدودا الى هذه العربة المثقلة ، والشمس فوقه تصب عليه جام غضبها . وان تاريخه هو ، محمود ، كحمال بدأ العمل منذ الخامسة عشرة ، ماضيه ، حاضره ، ومستقبله ، — مهدد في تلك اللحظة.

« هذه الدفعة لا ينقلها ثور . اعمل حسابك يا محمود ». ذلك آخر شيء قاله سالم .وفكر: « ربما اخطأت في تقدير قوتي، وهذا ليس ذنبي على اية حال. ان المرء يجهل نفسه حقا. هيا يا محمود واخلص من هذه الورطة اذا كنت رجلا » . ثم قال بصوت مسموع : « انما اردت ان انتهي باكرا». كان لا يزال هناك متسع من الوقت للمرور على مخزن مصطفى الطحان. «يا الهي ، ان ورائي ثمانية افواه ، تأكل رأس الحية » .

وافرغ محمود مزيدا من القوة . غير انه في الواقع لم يضف شيئا جديدا الى قدرته السابقة سوى ضغط جزئي على ذراعي العربة، لم يستطع المحافظة عليه طويلا. اذ ما لبث ان تراخت قبضتاه، فادرك انها النهاية. ورشح جلده عرقا اكثر من ذي قبل نتيجة لشحنة الجهد التي بذلها مؤخرا ، وقد اضيف اليها احساس بالفشل لم يكن متوقعا. ونظر حواليه بلا هدف محدد ، شأن انسان موشك على الغرق.

كانت عيناه مليئتين بالدموع والضياء الباهر . وكان العالم عن يساره ظلالا تنقصها الحياة . لقد مس بصره فيما مس ، البحر والشريط الرملي والبساتين . كان يجوز في تلك اللحظة منطقة ليس فيها بناء. وكم حملت له هذه الفجوة في الماضي انشراحا خاصا. واحس ان الاشياء بدأت تفقد بريقها شيئا فشيئا بالنسبة اليه : فالبحر صفحة زجاجية غائرة اللون يفصلها عن الشاطىء حد رملي باهت . وكانت البساتين ملفوفة بغلالة رمادية . اما عن يمينه فثمة جندب يصر في اسفل جدار مقهى الطابيات .

واستحال الاحساس القديم بالخوف الى شعور بالعجز. واحتلت المركز فكرة التوقف، غذّاها على التوالي احساس بالتظلم والتوحد والقهر والسن والتفاهة والعقوق، وكل ما يمكن ان يكون في صفه لو كانت الحال غير ما هي الآن .

ولكن التوقف اضحى مسألة ينبغي عليه ان يعيد فيها النظر . كان قد قطع مسافة طويلة من الطريق الصاعدة حتى اشرف على نهايتها. وامسى الانحدار اكثر حدة . كان يحتاج في حال توقفه الى رجل يدعم عجلتي العربة من الخلف بحجرين. « لو توفر ذلك الرجل فمن يضمن توازن العربة وعدم انقلابها على مؤخرتها في اللحظة الفاصلة بين تثبيت الحجر وصدمة التوقف ؟ » هكذا فكر محمود وهو يرمش بعينيه الملتهبتين المخضلتين بالدموع . ثم اضاف صعوبة تحرره من الحبل المار فوق كتفه اليسرى عبر صدره في اللحظة المناسبة . ولم يلبث ان واجه نفسه بهذه الحقيقة : « ولكنك وحدك يا محمود ، وحدك في هذه الطريق . لا اولاد ، ولا امرأة ، ولا عابر يدعم عجلتك بحجر . يا هوه ، هل خلت الدنيا من البشر ؟ ماذا بك ؟ هل اصبحت عاجزا تماما ؟ تبكي ؟ كلا ، تضحك ؟ كلا ، انت تبكي وتضحك معا ؟ كلا . لكني سأبكي حتما عندما لا يكون هناك ما اعمله . ان المرء لا يفتقر الى الحيلة . فثمة دوما ما يمكن عمله . يبدو لي انه لا يزال في مقدوري ان افعل

شيئا ما . هيا يا محمود وامشِ في خط منحنٍ . ولكن الطريق تطول . غير انه يسهل عليك صعودها » .

وانحرف محمود بعربته ، ودبت الحياة في العجلة اليمنى بعد ان اوشكت على التوقف . في حين تباطأت اليسرى وهي تدور على نفسها .

وازدادت ثيابه التصاقا بجسمه . وامست كل خلية فيه عينا تنضح عرقا . وتصالب عرقان في جبهته . واحس شريطا باردا تدحرج على ساقيه وقد انطلق من مغارة الفخذ .

ونشطت اليسرى بينا اخذت اليمنى تدور على نفسها . لقد طفا الرأس فوق سطح الماء من جديد . « عندما اصل الى تلك الصنوبرة ... تلك الصنوبرة ... ماذا بعد ؟ سأجد اولادا وسأطلب اليهم ان يدفعوا العربة من الخلف . هيا يا اولاد وادفعوا العربة مع عمكم العجوز . ولكن الاولاد يلعبون عادة على عتبة العابد . ودار العابد امست وراءك منذ زمن طويل . اذاً لا يوجد اولاد . سابكي هذه المرة دون ريب . ها انت تنسى مرة اخرى مواقع الاشياء وقد نسيت من قبل» . وسطعت في ظلام خياله كلمة « فحّام »، فاستدرك على الفور ضاحكا : « ولكن اسمه مصطفى الفحام وليس مصطفى الطحان . من اين اتيت بهذا الطحان يا محمود ؟ انت تهرف » .

كانت الشمس حتى تلك اللحظة قد ركزت غضبها عليه . لقد بحثت في الشارع عبثا عن ضحايا آخرين . كانت هي الاخرى تبدو متوحدة وضائقة بحملها . انها راحت تقرع قرعا متواصلا على صدغيه وتكوي نقرته . ولكن آلامها لم تكن شيئا ذا بال اذا قورنت بآلام ظهره . فمنذ قليل فرقع شيء ما في جسمه . وارتاع منه في البداية فارتخت ركبتاه . لكنه لم يلبث ان اطمأن في اللحظات التالية حيث لم يقع ما يخشى منه . «انها جراح ورضوض قديمة . كسور وصدوع اكثر من ان تحصى موزعة في انحاء هذا البدن المهدم . لعل التعب قد حرك احدها» . ومع ذلك لم يُدخل هذا التعليل كثيرا من الراحة الى نفسه . كان قلقا بشأن ظهره على نحو خاص .

ولاحق قدميه الحافيتين وهما تمران فوق ظله كأنما تحاولان ان تتخطياه . كما لاحظ انفراج اصابع كل قدم عندما تلامس الارض ثم تضغط عليها لتنثني مرتفعة في الهواء . وشده شيء الى داخله . « من يستأهل مثل هذا التعب يا محمود ؟ ثلاثون سنة وانت تعتل على ظهرك . بيتك بالايجار ونوافذك بلا ستائر واولادك يخجلون منك . هه ؟ لنرى ماذا سيصيرون في المستقبل ؟ فرسان برماح ؟ هاها . اي شيء في الدنيا يعادل آلام ظهرك الآن ؟ ولكن اذا ثابرت على التفكير فيه ... طيب ، طيب بماذا افكر ؟ خذ ام محمد مثلا . آه بنت الكلبة ! لقد رفضت ان تنام معها بالامس ، من اجل الستائر . لو تعلم كم

يكلف الحصول على القرش ؟ ولكن ماذا بشأن ظهرك؟ ظهري من جديد . آه . ماذا لو تصدع ؟ ولكنه لم يعد ظهرك الآن. احيانا افكر ذلك لولا الالم . اما ذراعاك فلن تكونا لك بعد قليل على كل حال . وسيزول دبيب النمل منهما » .

كان الالم في تلك اللحظة قد احتل الظهر والنقرة وركز فيهما جيوشه . ثم راح يوسع منطقته فاتجه ناحية اخرى واخذ يغزو الطرفين السفليين . لقد بدأ بالرجل اليمنى . كان الاحتلال كاسحا ومريعا . وقد تم له كل شيء في نفس اللحظة التي انطلق فيها . حتى ان الجسم لم تسنح له اية فرصة للمقاومة . لقد وجد نفسه مسحوقا تحت ضربة صاعقة . ثم انتهت المعركة بانتصار الالم . ولم يبق منها الا آثار بروق . اما اليسرى فقد استنفرت كل ما لديها ، وكمنت للعدو . لقد تهيأت تماما . ولكن ليس الى الحد الذي يمكن ان يضمن انتصارها . لقد استنفدت حيويتها خلال هرج التهيؤ . لعلها كانت تدرك ان المعركة خاسرة . ولكنها لم تشأ ان تستسلم دون مقاومة. لقد فقدت على كل حال تعقلها، فراحت تخبط خبطا . وفي الوقت الذي امتد فيه التيبس الى الرجل اليمنى ، وامست هزيمة الجسد محققة ، ظهرت مشكلة جديدة .

كان التعرق قد وصل الى ذروته ، فتعين على محمود ان يبذل جهدا خاصا كي يظل ممسكا بذراعي العربة . ولاح له ان المحافظة على هاتين الذراعين باتت حقيقية اكثر من الالم . فقد بدأت يداه المتعرقتان تخونانه بدورهما .

وبينما كانت جميع الدلائل تشير الى انه سينفض يده من هذا الامر ، اتصل الحبل من جديد . « لماذا مات فهيم ؟ كان حمارا صغيرا ولكنه جيد . هش هش يا فهيم ويمشي .هش هش يا فهيم ويسرع . طريق الطابيات طريق صعبة . لكني كنت سأدفعه من الخلف . ليس فهيم اقوى من الثور ، غير انه اكثر صبرا . والرجل يفضل الاثنين . الستائر شيء حسن بلا ريب ، ولكن لا معنى لها في بيت بالايجار . ليست ثمة طريق اخرى غير طريق الطابيات » .

وتلاحقت انفاسه. وبات لهاثه اكثر تقطعا. كان يقترب شيئا فشيئا من الفحيح. لكنه رغم ذلك فقد تابع طريقه . لانه كان يدرك ان الرجل اكثر قدرة على احتمال الالم طالما هو قائم على قدميه ، وطالما هو مستمر في سيره الى الامام .